



خطبة صلاة الجمعة 12 / 6 / 2015 للشيخ الطيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(الصبر التعاملي)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليفه، خيرُ نبيِّ اجتباه، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كرهه، اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (هَذِهِ أَجْمَعُ آيَةٌ فِي الْقُرْآنِ لِحَيْرٍ يُمْتَلَّ، وَلِشَرٍّ يُجْتَنَّبُ).

روى الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةً صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ» [الترمذي].

أيها الإخوة:

هذه هي الخطبة الحادية والعشرون في سلسلة خطب عنوانها (فضيلة... أخلاق تعاملية)، بإمكانك التدرب على الخلق الحميد لتكتسبه، وبإمكانك التخلي عما علق بك مما لا يليق بمثلك. وهذا هدف السلسلة.

عنوان خطبة اليوم: (الصبر التعاملي)

أيها الإخوة:

يُعَرِّف العلماء الصبر بأنه: حبس النفس على ما تكره للوصول إلى ما تحب.

فالمريض المبتلى يجبس نفسه على مرارة الألم راضياً بقضاء الله وقدره، متعاطياً أسباب الشفاء وعمله ليصل إلى العافية في الدنيا والأجر العقيم في الآخرة.

والمحافظ على صلواته وزكاته، يجبس نفسه الأثمارة على ماتكره من مكابدة الطاعات للوصول إلى سعادة الدارين.

وعندما تمد الشهوات المضلة رأسها المزين بأجمي الحلل وأحلاها لتلتقم أهل الخير، تجد المؤمن يجبس نفسه على مايكره من التواري أو الابتعاد عنها منتظراً مايجب من ثواب الله تعالى.

فالصبر حبس النفس على ماتكره للوصول إلى ماتحب.

وعندما يتحدث العلماء عن الصبر يتحدثون عن ثلاثة أنواع منه:

صبر على البلاء وصبر على الطاعة وصبر عن المعصية.

أما الصبر على البلاء: ففيه نزل قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 155-157].

وأما الصبر على الطاعة: ففيه جاء قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: 132].

وفي الآية لطيفة تقول: إن زيادة المبنى دليل على زيادة المعنى، (اصطبر) خمسة أحرف بينما (اصبر) أربعة، وفي قوله: (اصطبر) زيادة معنى على قوله: (اصبر).

والمراد -والله أعلم-: واصبر صبراً كبيراً عليها، فالطاعات الكبار تحتاج إلى رجال كبار، والرتب العاليات لا تنال إلا بعد صبر ومصابرات.

وأما الصبر عن المعصية: ففيه جاء الحديث المشهور في السبعة التي يظلمهم الله في ظله: «ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين».

وقد جمعت سورة يوسف أنواع الصبر الثلاثة، تجرعوها سيدنا يوسف عليه السلام فكانت العاقبة الوصول إلى مايجب.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَرَى الشَّيْطَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ

هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (100) رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿﴾ [يوسف: 100، 101].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْكَرِيمَ ابْنَ الْكَرِيمِ ابْنَ الْكَرِيمِ يَوْسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ» [البخاري].

والقارئ لسورة يوسف عليه السلام وتقلباته في المحن والبلاء والأزمات يظن أن الله تعالى يتخلى عنه مراراً، وينسى أن مصاعب الحياة تتمشى مع هم الرجال علواً وهبوطاً. كتب الشيخ الغزالي المعاصر يقول: (والصبر من عناصر الرجولة الناضجة والبطولة الفارعة، فإنَّ أنقال الحياة لا يطيقها المهازِيل).

والمرء إذا كان لديه متاع ثقيل يريد نقله، لم يستأجر له أطفالاً أو مرضى أو خوارين ؛ إنما ينتقي له ذوي الكواهل الصلبة والمناكب الشداد !!

كذلك الحياة، لا ينهض بها، ولا ينقلها من طور إلى طور إلا رجال عمالقة وأبطال صابرون. ومن ثم كان نصيب القادة من العناء والبلاء مكافئاً لما أوتوا من مواهب، ولما أدوا من أعمال). سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ» [الترمذي].

أيها الإخوة:

لئن كان الصبر حبس النفس على ماتكره للوصول إلى ماتحب، ولئن كان العلماء نَوَّعُوا للصبر أنواعاً ثلاثة: الصبر على البلاء وعلى الطاعة وعن المعصية؛ فإني محدثكم اليوم عن نوع آخر من الصبر: إنه الصبر التعاملى، ومرادى به في سلسلة أخلاق تعاملية الصبر على الصعوبات في التعامل مع الناس من بَعْدَ منهم ومن اقترب، من أحببت منهم ومن لم تحب.

أعني بالصبر التعاملى صبر الزوجة في تعاملها مع زوجها، وصبر الزوج في تعامله مع زوجته. أعني به صبر الوالد في تربيته ولده، وصبر الابن حين ير أباه وأمه. أعني به صبر الجار على جاره، والعامل على مديره، وسائق سيارة الأجرة على زبائنه، والموظف على مراجعيه، والطالب على معلميه، والشيخ على مريديه.

أيها الإخوة والأخوات:

الأصل المقرر في شريعتنا الغراء أنَّ من يخالط الناس خير ممن يعتزلهم، وأنَّ المتزوج أعظم أجراً من ترك الزواج، وأنَّ من يكدّ ويتعب ويبيت كالألّا من عمل يديه خير ممن ينفرد بنفسه مبتعداً عن الناس، وأنَّ المؤمن القوي خير وأحبّ إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف، وفي كل خير.

كل هذا إذا انضبط المخالط والمتزوج والعامل والقوي بضوابط الشريعة في مخالطة الناس ومنها الصبر عليهم.

وفي هذا جاء حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المسلم الذي يُخالط الناس، ويصبرُ على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس، ولا يصبرُ على أذاهم». [الترمذي].

قَالَ الصنعاني: (في الحديث أفضلية من يخالط الناس مخالطة يأمرهم فِيهَا بِالْمَعْرِوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحَسِّنُ مُعَامَلَتَهُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَعْتَزِلُهُمْ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى الْمُخَالَطَةِ، وَالْأَحْوَالُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَشْخَاصِ وَالْأَحْوَالِ وَالْأَزْمَانِ وَلِكُلِّ حَالٍ مَقَالٌ).

فالأصل أن المخالطة أفضل، ومعلوم بداهة أيها الإخوة أن الناس مختلفة الطبائع والأذواق والآراء، ومن ثم يحدث بينهم المصادمات والخلافات والمشكلات، ومطلوب من المسلم أن يتدرب على الصبر التعامل معهم.

- إنك تصاب بالذهول عندما يأتيك نبأ الفتاة التي زفت إلى زوجها قبل شهرين، فجاءت أباهَا باكية اليوم تريد الطلاق، لأنها لم تعد تطق صبراً...! وعجباً لحاملة الشهادات الدراسية العالية تنوء بشهرين من الصبر على الزوج.

وقد كانت أمهاتنا يصبرن عشرات السنين وعشراتهما يجبن أنفسهن على ماكرهن ليصلن إلى ما يجبن من نجابة الأولاد وسلامة الأسرة وصلاح خلق الزوج.

اتصل بي مرة وأنا على الإذاعة في برنامج يُبث على الهواء مباشرة رجل جاوز الستين ليقول: إنه رجل سيئ الطباع، صعب المراس، شديد العشرة لكن زوجته صبرت عليه ثلاثين سنة حتى هذبت طباعه وحسنت أخلاقه وجمّلت عشرته يقول: قلبتي بصبرها وأدبها من حال إلى حال، وكل الذي أنا فيه الآن من خير وعمل صالح بسببها وبفضلها بعد فضل الله.

لو كنا منصفين لأعطينا هذه الزوجة شهادة الدكتوراه بالصبر التعامل وبالدكاء الاجتماعي.

- إنك لتستنكر شاباً جلدلاً لا يجد عملاً وهو أشد ما يكون حاجة للمال، تُؤفّر له مكاناً للعمل بشق الأنفس فإذا به يترك العمل بعد أسبوعين وتسأله فيقول: لم أطق صبراً على التعامل مع صاحب العمل.

وإنك لترى رجالاً جاوزوا الخمسين والستين من العمر عملوا أجراء عند مدراء يسومونهم الألم النفسي حيناً والتعب الجسدي حيناً آخر، ثم هم يصبرون على التعامل مع مدرائهم يجسسون أنفسهم على مايكرهون للوصول إلى مايجبون من الرزق الحلال الذي يطعمونه أولادهم ليدرّس أبنائهم وينالوا شهادات عاليات، ويعملوا في رتب وظيفية رفيعة، فيمسح الأب عرق جبينه مفتخراً بأنه صنع أبناء عظاماً من كده وتعبه.

لو كنا منصفين لأعطينا هذا الأب العامل شهادة الدكتوراه بالصبر التعاملي وبالذكاء الاجتماعي.

- إنك لتعجب من طالب في مدرسة خاصة ينهره أستاذه فيشكو الأستاذ لأبيه ويقرر من نفسه أنه لا يريد العودة إلى هذه المدرسة، والعجب من مطاوعة الأب ابنه في هذه المسألة. يُتَمَيّ عند الهروب والخور والضعف والوهن في مواجهة مايكرهه، وقد نسي الأب أن الصبر حبس النفس على ماتكره للوصول إلى ماتحب.

أيها الإخوة:

عندما نسمع أن الكثرة تأبى السكنى مع الحماة، وأن الجار لا يريد أن يخالط أحداً من الجيران، وأن فلاناً لا يريد الزواج من كثرة ما يسمع من مشكلات المتزوجين، وأن ابن فلان لا يستطيع العمل عند أحد وأن أباه يسعى ليشترى له دكاناً ليعمل وحده بها، وأن فلاناً لا يريد أن يعمل في الدعوة إلى الله حتى لا يأتيه وجع الرأس من الناس، وأن كلمات أحرف (الشوك) لا تقرّبها؛ الشراكة والوكالة والكفالة، لا تشارك أحداً، ولا تكن وكيلاً عن أحد، ولا تكفل أحداً.

عندما نسمع كل مامضى ندرك أن الصبر التعاملي عندنا قليل، وأننا بحاجة أن نتدرب جميعاً على الصبر التعاملي.

وما عليه أن تنال الأجور العاليات الواردة في القرآن الكريم للصابرين، ومنهم الصابرون على التعامل مع الناس.

﴿ إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: 10] ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان: 17] ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: 90] ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 177].

ختاماً أيها الإخوة:

كيف تدرب نفسك على الصبر التعاملي؟

1- الإكثار من ذكر الله تعالى: فلا تزال تذكر الله حتى يستقر في قلبك أن الخلق عيال الله وأن أحبهم إلى الله أنفعهم لخلقهم، فتجهد وتجتهد أن توصل الخير إليهم وإن أصابك منهم ما أصابك تقرباً إلى الله تعالى وتحبباً إليه جل جلاله، مقتدياً بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عندما أوصل الخير لعباد الله وقد ناله من أذاهم ما ناله.

2- أيقن بأن من يتصبر يصبره الله: لقوله صلى الله عليه وسلم: «ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله. ومن يصبر يصبره الله وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر» [البخاري ومسلم].

3- جاهد نفسك ولا تعطها هواها فيما تحب: فإن الصبر حبس النفس على ماتكره، ومتى تجبسها على ماتكره إن كنت معطياً لها كل ماتحب، ومن هنا جاء صيام شهر رمضان - والله أعلم - وفيه تدريب على حبس النفس على الجوع والعطش في حر الصيف وطول نهاره. وهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة.

4- تذكر فوائد الصبر وأجوره: من توفيق في الحياة، ورضا رب العالمين، ومحبة الناس لك، وضياء لك على الصراط والجنة. ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 96].

والحمد لله رب العالمين